

خليل السَّكاكيني

سامية محاميد*

مقدمة

ولد خليل السَّكاكيني عام 1878 وتوفي عام 1953، أديب وناقد فلسطيني، له كبير الأثر في الأدب والسياسة، كان فعّالاً طوال حياته، ثار على المأثور في اللغة، وحارب الفساد في الكنيسة وثار ضدَّ الصهيونية والخونة، وقام بشنِّ حملات أدبية كثيرة ضدَّ الوضع السياسي. أنشأ مقرَّ الصَّعاليك الذي جعله مكاناً يضمُّ فيه آراءه السَّاخرة ضدَّ الوضع المزري الذي ساد ذلك الوقت.

جاء هذا البحث ليكشف عن شخصيَّة السَّكاكيني، من خلال المرور بمراحل حياته ومحاولة تدوينها بصدق، مستعيناً بمصادر ومراجع تمَّ انتقاها بصعوبة، وذلك لقلَّة ما كتب عن هذا الأديب.

هو خليل قسطندي السَّكاكيني، ولد في القدس عام 1878، درس في بداية سنوات حياته في مدرسة الرُّوم الأرثوذكسيَّة ثُمَّ في مدرسة صهيون البروتستانتيَّة وتخرج منها، وقد وصف نفسه في يوميَّاته⁽¹⁾، كذا أنا يا دنيا: "أقدَم ما أتذَّكَّر من أيام طفولي أنا كُنَّا نعيش في دارنا داخل المدينة، وكان شَعري أحمر بلون شعر سري (ابنه) وسلطانة اليوم (زوجته)، وأَنَّه كان مرسلاً، بحيث كان يضَّفِّر كشعر البنات، وأَنَّي كنت سميَّاً، بحيث كنت مع قِصري كالكرة أُتَدَّرِّج تدريجًا، وإذا كُنَّا نلعب مع إخوتي وأولاد عَيَّ

* باحثة ومدرسة - معاوية - أم الفحم.

¹ - أحمد حسن حامد، السَّكاكيني في المَهْضمة الفكرية، مكتبة النَّجاح، ط2، 1997، ص. 9.

في "حوش" الدار ونملأ الجوًّ بأصواتنا، وقد كنّا نسكن سنة في دار، داخل المدينة وسنة في دارنا خارج المدينة".⁽¹⁾

وقد كان السَّكاكيني مميّزاً في شخصيّته كثيراً فقد أحبَّ الحيوانات الأليفة وأحبَّ العمل ولم يفضِّل الرَّاحَة، فكان يعمل في العطل الصَّيفيَّة في التِّجارة، كما أَنَّه مارس هوايات عديدة كالصَّيد والمشي صباحاً، يقول في يوميَّاته: "أولعت وأنا دون العاشرة بالصَّيد، فمرَّت بي ثلَاث سنوات وأنا لا أكاد أفارق بندقيَّتي قبل ذهابي إلى المدرسة وبعد رجوعي منها في المساء، ومن الصَّباح إلى المساء في أيَّام العطل، و كنت إذا لم أجد ما أصيده أصيده حمام الجيران، بل كنت مرتَّة أصيده أخِي، إلى أن وقع في يدي كتاب يرْقَق قلبي على الطُّيور والحيوانات، ويقيَّح الصَّيد ويعُدُّه أثراً من آثار الوحشية فهُجرت من فوري بندقيَّتي".⁽²⁾

ثمَّ أَنَّه كان قويًّا الجسم محبوباً من غيره من الأولاد، يقول في يوميَّاته: "ولم يكن في المدرسة أحد أقوى مثِّي جسمًا، فكنا في أوقات الفراغ نتصارع فكنت أصارع أربعة أو خمسة معاً، ولم يكن أحد يستطيع أن يزحنج قدميًّا عن الأرض، ولذلك كنت ذا نفوذ بينهم... وفي عطلة المدرسة الصَّيفيَّة كنت أشتغل بالنجارة، و كنت محبوباً عند كلِّ من كان يشتغل هناك من بنائين ونجارين وغيرهم، و كنت في يوم السَّبت، حين يذهب المشتغلون ليقبضوا أجرتهم من رئيس العمل، أتَخَلَّفُ عن الذهاب معهم لأنِّي كنت أُخجل أن أقف موقفهم وأمدَّ يدي لأنَّناول أجرتي. كنت أتلَّذَّ بالعمل في أيَّام

¹ - خليل السَّكاكيني، كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيَّة)، المطبعة التِّجاريَّة، القدس، 1955م. ط 2 اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت، 1982، ص 13.

² - السَّكاكيني خليل، ما تيسَّر، مذَكِّرات و يوميَّات، ج 2 ص 17.

العلة ولا سيما وقد كنت محبوباً، إما لأنّي صغير السنّ سريع الحركة أو لأنّهم كانوا يحسنون معاملتي إكراماً لخاطر أبي، لأنّهم كلّهم تلاميذه في صنعة التّجارة".⁽¹⁾

وقد تميّز السّكاكيني بأنه «إنسان من طراز عالٍ، تميّز بأنّه مربٌ من طراز رفيع، وكان همُ السّكاكيني الأوّل أن يكون التّعلّيم أوّلاً وطنياً وثانياً صحيحاً. وكما نعِمَ لبنان بأعلام لغوين أمثال اليازجيين والبستانيين، نعمت فلسطين بالمعلّم نخلة زريق أحد أركان المَهْضمة الأدبية الحديثة في فلسطين، الذي غرس في طلّابه، والسّكاكيني في طليعتهم، حبَّ لغة الضّاد وتقديسها والمغالاة بها وإيثارها على سائر اللّغات». ⁽²⁾

بعد ذلك دخل السّكاكيني في مرحلة اضطراب أحسَّ بأنَّ حياته في نهايتها، وقد عانى في هذه الفترة أمرين كان لهما كبير الأثر في حياته، وهما الحبُّ والفقر، وبسبب الفقر سافر إلى إنجلترا ليبحث عن عمل، وهناك لم يحالفه الحظُّ فسافر إلى أمريكا. «فما كاد يحطُّ رجله في أمريكا حتّى راح يبحث عن عمل فاستُخدِمَ أوّلاً كاتباً في متجر، ولكنَّه لم يبقَ فيه سوى يوم أو بعض يوم، فراح يتعرّض بأذىال اليأس وحاول أن يتعلّم، وهو في أمريكا التّجارة، غير أنه أخفق أيضاً، فأخذ يعطي بعض التّلاميذ هناك دروساً خصوصيَّة». ⁽³⁾ في أمريكا كانت الأزمة الاقتصاديَّة في أوجها عندما رحل إلى نيويورك، وهناك رأى أمريكا على حقيقتها، فقد انتقدها بشكل كبير، لقد كتب في

¹ - خليل السّكاكيني، كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيَّة)، المطبعة التجارَّية، القدس، 1955م. ط 2 اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت، 1982م.

² - أحمد عمر شاهين، موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين، دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية . طبعة أولى: 1992.

³ - لجنة تكريم ذكري السّكاكيني: ذكري السّكاكيني، القدس، المطبعة العصريَّة 1957، ص 11.

كثير من الرسائل ينتقدونهم لأنهم يمشون بسرعة ويأكلون بسرعة وأنهم بسبب ذلك أنسوا مطاعم الوجبات السريعة والتي يأكل فيها الزبائن وهم واقفين.⁽¹⁾

انهت فترة الاضطراب الذي عاشه السكاكيني عام 1908 عندما رجع إلى القدس، فتكللت قصّة حبه بزواجه من سلطانة التي اعتبرها قصّة حب حياته، وقد أحيا حتى وافتها المنية، وأثّرت عليه كثيراً، ورزق منها بابنه (سري) الذي كان له كبير الأثر في نفسه. بعد ذلك قام بإنشاء مدرسته الدُّستورية التي أخذت تدرّس عليه من المال قسطاً وافراً جعله وأسرته يعيشون في حالة ممتازة، وقد كان يعمل في مجال التعليم فضلاً عن عمله في المدرسة الدُّستورية.

ثمَّ تغيّرت الأحوال عام 1924 فعاد الفقر يدق بابه، وهنا قام هو وأصحابه بإنشاء حزب الصّعاليك والذي عبر بالسُّخرية بالأحاديث عن الأوضاع السّياسية والاجتماعية الصّعبة. وقد وضع له قانوناً خاصاً و 13 مبدأً عبرت عن آرائهم.⁽²⁾

حياته السّياسية:

لقد حفلت المرحلة التي عاشها السكاكيني بالأحداث الكبيرة والخطيرة التي مسّت وطنه وأصابت الأقطار العربية كافّة، فقد عاين مظالم عبد الحميد ومفاسد العثمانيين، كما أنّه شهد بروز الصهيونية وبداية جذورها 1882 عندما بدأت الهجرة الأولى، وتألّم من رجال الدين اليونان الذين تسلّطوا على الطائفة الأثوذكسيّة التي ينتمي إليها في وطنه في فلسطين. وقد كانت فلسطين آنذاك من الناحية الإداريّة تشتغل على متصرفية التي ضمّت غالبيّة الأراضي وثلاثة أرباع السّكّان، وكان تابعاً

¹ - تماري سليم، الحبُّ والجوع في نيويورك: خليل السكاكيني، يوميات، رسائل وتأمّلات، 2003، ص 35.

² - أحمد حسن حامد، السكاكيني في المَهْضمة الفكرية المعاصرة، مكتبة النجاح، 1997، ص 12.

لوزير الدّاخليّة العثماني مباشرة، كما كانت أيضًا الشّام وبيروت متصرّفةً فكانت التّلّاث ولايات تسمّى سوريا الجنوبيّة تعيرًا عن موقعها الجغرافي.

وقد حاول السّكاكيني من خلال المنشورات والجرائد والمجلّات، إيقاظ القوميّة الوطنيّة والحماسة في قلوب الشّباب، وذلك من خلال الثّورات والمعارضات ضدّ السّياسات التّركيّة، ولكن ما حصل لم يغّرّ أنّه قد تحقّقت كُلُّ طموحاته، بل إنّ هنالك الكثير من الأمور التي كان يودُّ إصلاحها ما زالت كما هي، لم تتغيّر.⁽¹⁾

قام السّكاكيني بنشاطات إصلاحية مختلفة، وقد بدأ في الجمعيّة الأرثوذكسيّة، فقد انتبه أَمّا غير فعّالة وأنَّ هنالك فسادًا اجتماعيًّا وسياسيًّا تستطيع الحؤول دون تطُّوره وتفشّيه في الشّعب فساعد على تفعيلها، وبسبب الآمال الكبيرة التي وضعها المسؤولون في الجمعيّة فقد انضمَّ إليها عدد كبير على أمل أن يغيّروا السّلطنة التّركيّة، لكي يتحقّق العدل والمساواة في جميع أرجاء الدّولة الفلسطينيّة، وكان من بين من انضمَّوا السّكاكيني الذي أَدَى اليمين بأنَّه سيحافظ على الدّستور، وسيعمل على تغيير الفساد وتحقيق العدل والمساواة. ومن المؤكّد أنَّ التّصوّر عنده كما كان عند غيره، بأنَّ الدّستور الذي رأى النُّور على يد جمعيّة الاتّحاد والترّقى سيطلق فجر الحرّيّة، وشمس العدالة على العرب والأترالك، فيعيش الشّبان عهداً جديداً مضيناً، إذ لم تكن روح العداء للأترالك والرّغبة في الانفصال عنهم قد ظهرت بالفعل، وذلك لأنَّ التّزعّة الطُّورانيّة العنصريّة لم تكن قد تبلورت عند جماعة الاتّحاد والترّقى وأخذت تمارس بالعلن، واكتشف مبكّرًا أنَّ هذه الجمعيّة ليست هي الجمعيّة التي

¹ - يوسف أيوب حداد، خليل السّكاكيني حياته مواقفه آثاره، الاتّحاد العام للصّحافيين ص 121.

يمكن من خلالها أن يتحقق طموحاته، فقد تبيّن له أنَّ جمعيَّة القدس عبارة عن محكمة عليا تهتمُ بالشَّكاوى فقط.⁽¹⁾

هذا الأمر جعله يضاعف من نشاطه الملي فأسس جمعيَّة الإخاء الأرثوذكسي، وكان العاملون فيها من غير الأعضاء العاملين بالمجلس الملي. ثُمَّ قام بتأسيس فرع لها في القدس. ولم يغب لحظة عن أيِّ نشاط سياسِيٍّ جرى في القدس، فكان يلقي الخطابات ويقيم المهرجانات، وقد عقدت البَيْتَةُ أن يكون حماسياً فقال: "عقدت البَيْتَةُ أن أتعهَّد هذه الحماسة التي يبدِّها الشُّبَّانُ من وقت إلى آخر، فلا تعتُّ الأمم إلَّا بِمقدار ما في صدور شبابها من الحماسة".

انتهى إلى العديد من الجمعيَّات وقام بنشر الوعي والمعرفة، فتبلور الأفكار وتتوحد حول العمل الجماعي لرفعة الوطن وخدمته. كانت طموحات السَّاكِيني كبيرة جدًّا ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السُّفن، فقد لاقى المعارضة من الإكليروس المُسلِّط على الطائفة، ذلك أنَّ الإصلاح هو زوال نفوذه ومنافعه، وهو ما لا يريد حصوله ثُمَّ اصطدم بالوجهاء الذين تعارضت مصالحهم مع كلِّ ما سيحصل من إصلاح. ومن جهة أخرى بدأت الجمعيَّات المشتركة مع الأتراك بالخيانة والتعاطي مع الحركة الصهيونية، كلُّ هذا دفعه إلى السُّكون فترة والتَّوجُّه إلى النَّشاط الأدبي الذي كان قد بدأ به قبلاً.⁽²⁾

¹ يوسف أَيُوب حَدَّاد، خليل السَّاكِيني، حياته، مواقفه وأثاره، الْإِتَّحادُ العامُ لِلْكِتَابِ وَالصَّحَّفِيِّينِ الفلسطينيين، 1991، ص. 127.

² - المصدر السابق، ص. 128.

نشاطه الأدبي:

انقسم نشاط السكاكيني الأدبي إلى العديد من الأنواع، فقد كتب في اللغة مطالعات في اللغة والأدب (1925)، ثمَّ كتب مجموعة من المقالات في الأدب والنقد، كما ألف كتاباً في الشعر رثى فيه زوجته سلطانة. ثمَّ كتب سيرته الذاتية "كذا أنا يا دنيا". والذى سنتكلم عنه لاحقاً.

اقرب من عالم الصحافة بتنقيح مسودات مجلَّة: الأصمعي والقدس، ثمَّ أسس (1909) المدرسة الدُّستورية، وفي (1914) أصبح عضواً في قومسيون المعارف بالقدس، وفي (1919) عمل مديرًا لدار المعلَّمين بالقدس، ثمَّ سافر إلى مصر (1920) وبقي فيها عامين، حيث عمل مديرًا للمدرسة العبيدية.

و"لعلَّ السكاكيني أول رجال المَهْضمة الذين عملوا على إدخال الكتابة في طور جديد، فقد عمل على إحياء أسلوب جديد للكتابة، يخلو من الأساجع الملفقة والمحسَنات البديعية المتكلَّفة. وكان من أوائل الأدباء الفلسطينيين الذين كتبوا في الصحافة، وأخذوا بالأساليب العصرية، وتميَّزوا بشخصية أدبية مستقلة. وكان يراسل عدداً غير قليل من كبريات الصُّحف والمجلَّات الأدبية في العالم العربي، وينشر فيها المقالات التي تحمل مبادئه الأدبية والإنسانية والاجتماعية، مما أكسبه شهرة واسعة. ولقد أثار قضايا أدبية هامة في كتاباته على صفحات الجرائد، وخاصة في المعركة التي أثارها مع الأمير شكيب أرسلان حول القديم والجديد على صفحات جريدة «السياسة» و«الشُّورى» وغيرها.⁽¹⁾

¹ - حسين العودات وياسين الشَّكر، الموسوعة الصحافية العربية، الجزء الأول: (بلدان المشرق العربي: سوريا .لبنان .فلسطين .الأردن)، المنظمة العربية للتراث والثقافة والعلوم، تونس .

وفي هذه الفترة "زادت مساهمة الصحف في تطوير الأدب، عندما جعلت من صحفتها محفلاً لمناقشات الأدباء حول الأدب والثقافة و حول النقد الأدبي أيضاً، وهو الأمر الذي ساعد على بلوغ الإتجاهات الأدبية والفنية والثقافية الجديدة".

ويمكننا القول إنَّ مرحلة نشوء الثقافة الفلسطينية قد عرف فيها الأدب اتجاهين واضحين، أحدهما يدعو إلى إحياء الأساليب العربية الأصيلة في التعبير، ويحتفل باللُّفظ الفصيح والرَّاكِبُ البليغة أيضاً، وقد مثلَ هذا الاتجاه الأديب محمد إسعاف النَّشَاشِيَّيِّي. وأمَّا الاتجاه الآخر فيدعو إلى الاحتفال بالمعاني وتقديمها على الألفاظ، مؤكِّداً على الالكتفاء بسلامة هذه الألفاظ لغويًّا، ومثلَ هذا الاتجاه الأديب خليل السَّكَاكِيَّيِّي.⁽¹⁾

كما كان لكلٍّ من الأديبين خليل السَّكَاكِيَّيِّي وإسعاف النَّشَاشِيَّيِّي أسلوبه الخاصُّ في الكتابة، دون أن يُحدث الاختلاف في الأسلوبين خلافاً وخصوصية بينهما، فإنه في مجال النقد الأدبي كان لكلٍّ منهما أسلوبه المختلف عن الآخر، والمستمدُّ من نفس المسِّوغات التي أَسَسَ عليها كلُّ منهما أسلوبه في الكتابة.

آثاره القلمية:⁽²⁾

- الاحتذاء بحذاء الغير، القدس، 1896 م.
- النَّهضة الأثروذكسيَّة في فلسطين، القدس، 1913 م.
- مطالعات في اللُّغة والأدب، دار الأيتام الإسلامية، القدس 1925 م.
- فلسطين بعد الحرب الكبرى، القدس، 1925 م.

¹ - محمد سليمان: مقالة: صحف البدايات (1904 - 1922م) تؤسس للنَّهضة الأدبية الفلسطينية، موقع مجلة "رؤيه" الإلكتروني [www.idsc.gov.ps] ، بلا تاريخ نشر.

² - أحمد حسن حامد، 1997، 32 - انظر أيضاً، أوس داود يعقوب، 2010.

5. الجديد في القراءة العربية (4 أجزاء)، القدس، 1924 م و 1933 م.
6. سري، المطبعة التجارية، القدس، 1935 م.
7. حاشية على تقرير لجنة التَّظُر في تيسير قواعد اللُّغة العربية، مطبعة بيت المقدس، القدس، 1938 م.
8. لذكرى، المطبعة العصرية، القدس، 1940 م.
9. وعليه قس، القدس، 1943 م.
10. ما تيسَّر (جزءان)، المطبعة العصرية، القدس، 1943 م و 1946 م.
11. الأصول في تعليم اللُّغة العربية، جزءان: الدليل الأول والدليل الثاني، القدس، 1934 م و 1936 م. ط 2، دار الاعتماد، القاهرة، 1952 م.
12. معالم التَّارِيخ الْقَدِيم، (ترجمة)، بالاشتراك مع وصفي عنبتاوي وأحمد خليفة سنة 1942 م.
13. كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتية)، المطبعة التجارية، القدس، 1955 م. اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت، طبعة ثانية: 1982 م.
14. أعزائي، (سيرة) 1978 م.
15. الأعمال الكاملة للسَّكاكيني (جزءان):
 - أ-الأدبيات، (مقالات السَّكاكيني الأدبية)، المطبعة العصرية، القدس، 1962 م.
 - ب-”مقالات السَّكاكيني اللغوية“.
16. يوميات خليل السَّكاكيني، يوميات رسائل، مذكرات، (4 أجزاء) تحرير أكرم مسلم، مؤسسة الدراسات المقدسيّة في رام الله ومركز خليل السَّكاكيني الثقافي، صدرت بين 2003 م و 2005 م.
- وللسَّكاكيني آثار مخطوطة منها كتاب (آدم)، إضافة إلى مقالاته الكثيرة المنشورة في الصحف والمجلات العربية في اللغة والأدب.

النشاطات الدينية:

تضارفت عوامل متعددة وراء ثورة السّاكاكيني على الكنيسة وانفصاله عنها ونقمته عليها، لكنَّ هذه الثورة التي بدأت ببيضاء من مجالس الملة انقلبت إلى ثورة لاهبة صاخبة، بعد أن جوهرت حركة الإصلاح بمعارضة صارمة وعناد حاد. وكانت دوافع السّاكاكيني الإصلاحية تعود لعدة عوامل، منها أنَّه كان منفتحاً عقلانياً في مفهومه الديني لا يؤمن بالقشور ولا يرضى بالسُّكوت على الخرافات الطقسيَّة التي يتقمها الرُّهبان لأغراضهم الخاصة، ومنها استشراء الفساد والتعالي في جسم البطريركيَّة الأرثوذكسيَّة ومؤسساتها، ومنها اغتصاب اليونان الإكليركين لسلطات الكنيسة العليا وحصر المراتب الدينية بالعرب أهل فلسطين، الأمر الذي لم يستسغه الأرثوذكس عامَّة والسّاكاكيني خاصةً، وهو الناقم على الغرب والمتهم بشرقيَّته. خلافاً عن ممارسات البطريركيَّة في حضور حفلة إعلان الانتداب التي أعلنت الحركة الوطنية الفلسطينيَّة مقاطعتها، وبقيامها ببيع أراضي الأوقاف للصهاينة.⁽¹⁾

كلُّ هذا أدى به إلى القيام بشِّرِّ حرب على الكنيسة، ولتمسُّكه الشديد بعروبة دعا الكنيسة إلى تعريب لغتها، وتعريب الصَّلوات فيها، وطالها بأن لا يصلَّى فيها باللغة اليونانية وأن لا تستخدم فيها إلَّا اللغة العربيَّة، ونشر في هذا الصَّدد منشوراً عام 1913م بعنوان "النَّهضة الأرثوذكسيَّة في فلسطين". وقد أدى هذا الأمر إلى مواجهة مع الكنيسة كانت نتيجتها أن انشقَّ (خليل) على الكنيسة، بعدما فشلت حركة "الإصلاح" التي بشَّرَ بها وقادها بجرأة، فأصدرت الكنيسة بأمر من البطريرك اليوناني (ذميانيوس) "حرماناً" بحقِّه، ومنعت على رعيَّتها مخالفته والإصغاء إلى آرائه، ثمَّ

¹ - حَدَّاد، خليل السّاكاكيني، ص 184.

رفضت تزويجه وأخرجته من المنزل الذي كان يسكنه، وهو منزل تابع لـ "دير الرُّوم" في القدس.⁽¹⁾

عندما أعلن السَّكاكيني "لست أرثوذكسيًا". ثمَّ قام بخوض حرب ضارية على الكهنوت اليوناني.

وقد رأى السَّكاكيني أنَّ سيطرة رجال الدين على الدولة من الأمور التي تضعف كيانها وتدخل الفساد إليها لأنَّهم يقومون بالكثير من الأعمال باسم الدين والقدس. ثمَّ تحكم رأس الكنيسة بشؤون الناس على طريقة الراعي والقطيع والعصا. ولمَّا أيقن أنَّ هذا المثال غير جدير بالاقتداء راح يجاهر بآرائه في رفض الطُّقوس كلِّها، وشرع يدعو إلى الأخذ بروح الإنجيل لا بطقوس الكنيسة، وكان يردد قول الإنجيل: "الحرف يقتل والروح يحي". ثمَّ قاد حركة إصلاحية داخل الطائفة "الأرثوذكسيَّة" للتخلُّص من استبداد (الإكليروس اليوناني)، وكان لا ينفكُ قائلًا: "لا تخافوا السماء لأنَّ سلطتهم (أي سلطة رجال الدين) ليست من السماء".⁽²⁾

مرحلة الحزن

بعد ذلك مرَّ السَّكاكيني بثلاثة أمور أوجعت قلبه كثيرًا، وتعدُّ هذه الأمور هي المرحلة الأخيرة في حياته. أولى هذه الأمور كان وفاة زوجته سلطانة، فقد أحياها حبًّا كبيرًا ما أثر على كتاباته، فرثاها في كتاب كامل هو "لذكرالك" وجعل لها فصلاً في يومياته أسماه "دعونا ننقرض". لم يجد السَّكاكيني طعمًا للحياة بعد موت سلطانة أو "صاحبة الجلاله" كما كان يدعوها.

ومن قصيده في رثائهما:

¹ - أوس داود يعقوب، خليل السَّكاكيني، مؤسَّسة القدس للثقافة والتراث، موقع إلكتروني.

² - المصدر السابق.

قفا نبكٰ

(١) في رثاء زوجته (سلطانة)

ولا تبخل بالدموع، فالدموع حاجتي
أراه مصاباً قد تجاوز طاقتني
صبوحاً على الأرzae يقرعن ساحتني
حوادث هدا الدّهر إمّا توالّت
على قدر ما قد زوّدتني ثقافي
ضعيّاً جزوّاً ذا شَجَّى وكآبةٍ
وراجعت ما أدرّي، وأين درايتها؟!
لعلّي أرى فيه قضاءً لباني
وأصفيت علّي أن أفوز بنامة
وكدت أنا دمها على مثل عادتي
ولم ألق إلّا ما يشّقّ مراتي

قفا نبكٰ من ذكرى أذابت حشاشتي
قفا أسفاني في مصابي، فلأنّي
لقد كنتُ قبل اليوم أحسب أنّي
وأيّ كبيّر القلب، لا تستخفه
وأيّ على حظٍ من العلم صالحٍ
فلما دهاني ما دهاني، وجدتني
رجعتُ إلى قلبي، وأين اصطباً؟!
وقلت: لعلَ الشِّعرَ ينفعُ في الأسى
تلّفتُ علّي أن أراها فجاءَه
وقلت: هنا عاشت، وهذا مكانها
فلم ألق إلّا خدعةً بعد خدعةٍ

وتأتي المصائب متتابعة فتحلُّ نكبة فلسطين 1948، مما يودي ببيته الجميل الذي لم يكن قد أكمل فيه عشر سنوات، فيخرج منه غصباً، يقول في يومياته يودع البيت والمكتبة: "الوداع يا دارنا! يا مستودع الأمانات، يا مجمع الخلّان يا مقصد الزّوار في الليل والنهار، لم يكن يمرّ بك أحد ولا ابن سبيل إلّا دخل وشرب القهوة، وإذا كنّا على الطّعام أشركناه في ما تيسّر، الوداع يا دارنا يا دار الأمة! يا ملتقى أقطاب السياسة ورجال الصحافة وكبار الخطباء والفنانين من مصر ولبنان وسوريا والعراق! الوداع يا دارنا، يا مستقرّ القيادة، يا مستوصف الجرحى، يا ملاذ اللاجئين".^(٢)

^١ - النسخة الإلكترونية لمعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين.

^٢ - السّاكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 339.

ثمَ ينتقل السَّكاكيني إلى وداع مكتبه قائلاً: "الوداع يا مكتبي يا دار الحكمة، يا رُوّاق الفلسفة يا معهد العلم ويا ندوة الأدب، الوداع يا كتبِي، لستُ أدرِي ما حلَّ بك بعد رحيلنا، أحرِقْتِ؟، أُنْقِلْتِ معرِّزَةً مَكْرَمَةً إلى مكتبة عَامَّة أو خاصَّةً؟، أصرَّتِ إلى دِكَاكِين الْبَقَالِين يَأْفُّ بِأَوراقِك البَصْل؟ يَعْزُّ عَلَيَّ أَنْ أُحرِمَ مِنْكَ وَقَدْ كُنْتَ غَذَائِي الرُّوحِي وَكُنْتُ وَلَا أَزَالْ شَرَهَا إِلَى هَذَا الْغَذَاء، لَقَدْ كُنْتَ أَلَزْمَكِ فِي لِيلِي وَنَهَارِي، وَلَمْ يَزْرُنِي أَحَدٌ فِي الْلَّيْلِ أَوِ النَّهَارِ إِلَّا وَجَدَنِي مُنْكَبًا عَلَى كَتَبِي".⁽¹⁾

هذا الأمر جعله يغادر إلى القاهرة قسرًا وقضى بها بضع سنوات كانت مليئة بذكرياته الحزينة التي ملأت قلبه وفكره، ومن ثمَّ وفي عام 1953 فاجأه خبر وفاة ابنه سري، الذي كسر قلبه وروحه، بعد أن انتهت من حياته آخر شعلة أضاءتها. هذا الأمر أصابه بالإحباط والحزن الذي لم يصبر عليه، فوافته المنية بعد موت ابنه بثلاثة أشهر.

نظرة في كتاب "كذا أنا يا دنيا":

كان السَّكاكيني يرى في قلمه صديقاً يروي له كلَّ ما يحصل في حياته وكيانه، فكان إذا حصل معه شيء دونه على أوراقه، فكتب آراءه في السياسة والأدب والدين، وعند موته قامت ابنته بجمع كلَّ ما كتبه في كتاب وأسمته "كذا أنا يا دنيا" وهو بداية بيت شعر للمتنبي الشاعر المفضل للسَّكاكيني:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهب
ويَا نَفْسَ زِيْدِي فِي كِرَائِهَا قُدْمًا
ويحتوي الكتاب على اثني عشر فصلًا، وذلك تسلیلاً لقراءاته، يبدأها بالحديث عن سلطانة فمثَّل لحِيَّه لها وتلهُّفه علَيْها، وقطع نثرَةً في وصفها من بداية الفصل حتَّى

¹ - يوسف أَيُوب حَدَّاد، خليل السَّكاكيني، حياته، مواقفه وآثاره، تقديم أنيس صايغ، الْإِتَّحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، بيروت - 1981م.

نهايته. وفي الفصل الثاني تحدث عن أمريكا وما حصل معه هناك، والمصاعب التي واجهها عندما حاول الحصول على عمل ليعيل أسرته. أما الفصل الثالث فيحتوي على دور الحركة الأرثوذكسيّة وما قام به لأجل رفعتها. في الفصل الرابع يشرح عن نشاطاته في مجالات التربية والتعليم، وفي الخامس وصف للحرب العالمية وأهواه، وخصص الفصل السابع للفترة التي قضتها في السجون في أوائل الانتداب البريطاني. في الفصل الثامن تحدث عن رحلته للقاهرة وإدارته لقسم العربية في العبيدية، والتاسع عبارة عن رسائل بعث بها إلى ولده من سنة 1931 إلى 1937، وقد قامت هذه الرسائل عنده مقام اليوميات، فكان يخاطب نفسه فيها ويبين آراءه وانتقاداته للناس.⁽¹⁾

مبادئ السّاكاكيني:

في مقال فيصل دراج⁽²⁾ يعدد المبادئ التي آمن بها السّاكاكيني والتي أوردها في يومياته، وأولى هذه المبادئ: "التشبّث بمنظومة أخلاقية صارمة قوامها الصدق لزاهة وشجاعة الرأي وازدراه التكسب والمجارة، الأمر الذي وضع في أقواله وأفعاله أبعاداً طهريّة واضحة. ويتجلّى المبدأ الثاني في تقدير العمل الدّؤوب المنظم، وتأكيده تعبيراً عن الإنسان السّوّي وحالاً في آن واحد. ويصدر المبدأ الثالث عن التّزوع إلى التّمرّد الصّحيح، ي ملي عليه أن يرفض ما يجانب العقل والمنطق، حتّى لو أقبل عليه الآخرون وقبلوا به. أنتجت هذه المبادئ الثلاثة شخصيّة تختلف عن غيرها، لها دور ثقافي فلسطيني وعربي، ولها موقع تربوي وريادي في فلسطين وما يحيط بها، وذات

¹ - حداد، السّاكاكيني، ص 32-32.

² - فيصل دراج، السّاكاكيني: القضية الوطنية وأحلام المثقف الرّاقِي: يوميات خليل السّاكاكيني، رام الله 2003، ص 11.

حضور وطنيٍّ فعال، يتوزَّع على الكتابة والمظاهره والخطابة، ومبادرات وطنيةٍ تنوعَت
اصطدمت في معظم الأحيان بعوائق كبيرة.⁽¹⁾

لقد تبَّعَ السَّكاكيني بعض النَّظريات والآراء لأشخاص أحبَّهم وقدرَهم ومن أهمِّهم،
الشَّاعر المتنِّي، والفيلسوف الألماني نيتشه والسيِّد المسيح، فهو أحبَّ فكرة الإنسان
الأعلى الَّذي يكون مستعداً لخوض الكلِّ من أجل طموحاته وأماله، ولذلك فقد
أعجبه مبدأ القوَّة في فلسفة الفيلسوف الألماني، كما أنَّ فتنَة المتنِّي قائمة على
الطُّمُوح الْلَّاهُمائي في حياته، كما أنَّ السيِّد المسيح لم ييأس أبداً بل جاهد دائمًا في
سبيل طموحه وإيمانه برقِّ الإنسان.

حاول السَّكاكيني الفصل بين أنواع الأشخاص، ولذلك فهناك فرق بين الإنسان
الذِّي يعيش حالة مرضيَّة وبين الإنسان الَّذِي يستولد حاليه من الثقافة والإرادة
والأخلاق. ولذلك فقد كتب رسالة إلى ولده سري قال فيها: "أكره سوء الاستعمال أياً
كان مصدره، أكره الحاكم الَّذِي يراعي الخواطر ويحابي الوجوه، الَّذِي لا يكون عادلًا
إلا إذا كان العدل لا يغضِّب أحدًا ولا يرضي أحدًا، الَّذِي لا يكون حازماً إلا مع
المستضعفين المنذَلين، أكره الحاكم الَّذِي ينظر بغير عينيه ويسمع بغير أذنيه، ويُسِير
بغير رأيه ويعتمد على غير عقله، ويستلسم إلى غير وجده، بل يكون الله صماماً في
أيدي ذوي الأغراض والمطامح يصرِّفونه كما يشاؤون". 6.11.1943.⁽²⁾

حارب السَّكاكيني الاحتلال الَّذِي كان موجوداً في الكثير من الفئات والجماعات، لذلك
فإنَّه استقال من دار المعلِّمين في القدس احتجاجاً على دخول المندوب السَّامي
الصُّهيوني، حتَّى إنَّه عندما دعاه المندوب السَّامي، فإنَّه لم يقبل بهذه الدُّعوة. وقد

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر السابق، ص 13.

كره الوظيفة لكرهه للسلطات السياسية، كتب يقول: "ما رأينا ملّاكاً أو أميراً بين الفلاسفة، ما رأينا ملّاكاً أو أميراً يبحث في أمور البشر أو في حقوق البشر، وفي حرّيّة إصلاح البشر وإسعادهم. بل رأينا بوداً قد تخلى عن الملك وانضمَّ إلى الصّعاليك بعد أن عانى من الشّقاء ما لا يطاق، وقد يشبهه النّعمانُ الأكابر ربُّ الخوزنَق والسدِير، فقد اعتزل الملك وترك قصره وهام على وجهه ولم يُرَ بعد ذلك ولعلَّه انتحر لأنَّه رأى في الحياة عبث."⁽¹⁾

عندما بدأ الكيان الصهيوني بالتوغل في فلسطين خاف السّاكاكيني كثيراً، ولكنَّ خوفه لم يكن من الصهيوني نفسه، بل من الوسائل التي كانوا يتعاملون بها، فقد رأى في نظامهم وتصرُّفاتهم وتدبيرهم للأمور من الحكمة، بما لا يوازي ولو بالقليل ما لدى العرب الفلسطينيين من الفوضى والشتات والتَّفكُّك. لذلك فقد تشاءم وتوقع أن يكون التَّوغل قوياً.

هاجر السّاكاكيني من وطنه ثلث مرات، الأولى عندما ذهب إلى أمريكا ليبحث عن الرِّزق والثانية عندما نُفي إلى دمشق عام 1918، والثالثة عندما رحل مع أسرته إلى القاهرة، وتقوم شهرته على أنه كاتب ومفَكِّر مقدسيٌّ، وتربويٌّ تقدُّميٌّ، ومفَكِّر حرٌّ يقف والمؤسسة الدينية على طرفي النَّقيض. وتعُد يومياته في تقدير ناقد أدبي متميِّز، إيذاناً بدخول الأدب الفلسطيني مرحلة الحداثة، لقد كان منهجه في التَّدريس الذي طبَّقه في المدرسة الدُّستورية التي أنشأها قبل الحرب العالمية الأولى ثوريًا بالنسبة لكلِّ معاصريه تقريباً. الغي العقوبات البدنية للطلبة بوصفها "بربرية" وتعود إلى "القرون الوسطى". واستبدل بالامتحانات تقييماً ذاتياً يقوم به الطَّلبة والمعلمون. وطلب من المعلمين أن لا يسجلوا أسماء الطَّلاب المتفَقِّبين، كان للطلبة الحرية في

¹ - المصدر السابق، ص 17.

ترك المدرسة والذهاب إلى البيت إذا شعروا بالملل. وقد شعر أنَّ هذا يجبر المعلم على أن يكون ممتعًا ومجدِّدًا لكي يحافظ على اهتمام الطَّلبة. كلُّ هذا أنشأه السَّكاكيني في أوائل العشرينات.⁽¹⁾

من مواقف السَّكاكيني المشهورة والَّتي تبرز دعوته إلى التَّجديد، موقفه من اللغة والأسلوب: فقد آمن السَّكاكيني بأنَّ اللغة وسيلة لا غاية على عكس القدامي، كما آمن بالاعتماد على الأصالة والطبع في الأسلوب ونبذ التَّقليد والصَّنعة والتَّكالُف. الأدب في مفهومه صورة للحياة والواقع يمثل العصر ويدلُّ عليه، ولا يكون خارج دائرة زمان ومكان صاحبه، لذلك فهو يدعو إلى الوضوح والابتعاد عن التَّعقيد والتَّقْعُر. من هنا هاجم الشُّعراء "الَّذين لا يستوحون عقولهم وقلوبهم، بل يستوحون القدماء فيستعيرون معانיהם وألفاظهم، كما هاجم ما شاع في عصره من استعمالات أدبية كالتضمين والاقتباس والتلميح وسائر الـهلوانيَّات الـلُّفظية".⁽²⁾

يقول: "إذا كان لا بدَّ للكاتب أو الشَّاعر أن يستعيير معاني غيره ويستعين بالألفاظ، فعليه ألا يسرف في ذلك. وإنَّ كان كلامه صدئ مردداً، هذا إذا لم نُعدْ مسؤولاً، وعلى أن يكون ما يستعييره من المعاني وما يستعين به من الألفاظ ممَّا يعينه ويقتضيه الحال الَّذي هو فيه، وإنَّ فقد يكون ما يعنيه أو ما يقتضيه الحال شيئاً وما يكتبه آخر، وهذا هو التَّكالُف بل الجمود والنِّفاق".⁽³⁾

ويقول أيضًا مهاجمًا التَّكرار والتَّرداد الشَّائعين في عصره: "وممَّا أُولع به أصحاب المذهب القديم إلى يومنا هذا، تكرار الكلام في غير مواطن التَّكرار، والإسراف في

¹ - المصدر السابق، ص 23.

² - عدنان أبو غزالة، الثقافة القومية في فلسطين خلال الانتداب البريطاني. ترجمة د. حسني محمود، الأسوار، عَكَّا (د.ت.)، ص 14.

³ - حَدَّاد يوسف، ص 239.

استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة، فهم لا يأتون بكلمة إلا أتبعوها بمرادفاتها". ويخلص من هذا إلى أنَّ استعمال مثل هذه المترادفات يدلُّ على "زيارة المادة الفكرية".

كما أنَّ السَّكاكيني كان فاهماً لروح عصره، لذلك دعا إلى الإيجاز في الكتابة حيث يقول: "وأنت إذا تفَقَّدت كلام العرب في أشعارهم وأمثالهم وخطبهم ورسائلهم، علمت أنَّهم يميلون إلى الإيجاز... فما قولك في عصر كادت تغلب فيه لغة التِّلغراف". كما أنَّه هاجم الشُّعراء والكتَّاب المولعين باستعمال الغريب حيث يقول: "بل كان منهم ولا يزال كثيرون من أولئك بالغريب، فإذا رأى كلمة ورقة شائعة معروفة استعمل كلمة قرطاس، فإذا شاعت استعمل كلمة كاغد".⁽¹⁾

كما هاجم الَّذين يستعملون التَّراكيب الجاهزة المحفوظة المعلبة الَّتي لا حياة فيها ولا روح. يقول: "الحياة، إذا أردتم أن يكون لكم موسيقى أو غناء أو شعر أو أدب، بل إذا أردتم أن يكون لكم وجود، فليكن فيه حياة وإلا فلسْتُم إلَّا هيأكل بالية"[13].

ملخص

خلف السَّكاكيني وراءه الكثير من التَّغييرات الَّتي كانت بداية لتغييرات أكبر فيما بعد، فقد كان نشيطاً أدبياً وسياسياً واجتماعياً، ففي مجال الأدب قام بحملات كثيرة ضدَّ القديم وللخروج عن المأثور، وفي السياسة وقف في وجه الاحتلال، كما أنَّه وقف ضد الكنيسة عندما رأى الفساد المنتشر فيها. لقد آمن السَّكاكيني بقضيته وعمل من أجل تحقيقها، ولذلك فقد كان عمله صادقاً ونضاله ذا نفع على وطنه.

¹ - مجمع اللُّغة العربيَّة، خليل السَّكاكيني والتجديد، 2011

<http://www.arabicac.com/?mod=articles&ID=373>

واجه السَّكاكيني الكثير من الصُّعوبات في حياته وصدمته الحياة في أكثر من موقع، فنراه ثورِيًّا ذا طموح يدعو إلى تعريب اللُّغة بعد أن قام الإكليريكُون باغتصاب الكنيسة العليا، فثار ضدَّ الصَّلاة والترانيم باللُّغة اليونانية، ولكنَّه جوبه بالمعارضة ورفضه من الكنيسة، بل وحرمانه منها. حاول السَّكاكيني في بداية حياته أن يجاهبه الفقر فسافر إلى إنجلترا ومن ثمَّ إلى أمريكا، وهناك لم يحالفه الحظُّ أكثر من أشهر قليلة، عاد بعدها إلى بلده وعمل قرِيبَ السَّنة، ثمَّ دقَّ الفقر بابه من جديد. وتزوج حبيبة قلبه سلطانة، ثمَّ وبعد أن أنجبت له ولدًا وبنَتَا وافتها المنيَّة، فحزن حزناً شديداً وانطفأت الشَّمعة التي أوقدت حياته.

فيما بعد واجه المحنَّة الكبيرة وهي نكبة 1948، وكان منها أن هجَّرته من بيته الذي لم يقض فيه أكثر من عام، فرحل إلى القاهرة وهناك عاش على ذكرياته المؤلمة، فألفَ كتاباً لرثاء زوجته، ما كاد ينهيه حتَّى ابْتلي بوفاة ابنه سري، وهنا انتهت آماله في الحياة، فحزن كثيراً ولم يستطع الخروج من دائرة حزنه، فوافته المنيَّة بعد موت ابنه بثلاثة أشهر ودفن في القاهرة.

المراجع:

1. حامد، أحمد حسن. **السَّكاكيني في الْهَمْضَةِ الْفُكُرِيَّةِ**. ط 2، د.م: مكتبة النَّجَاح، 1997.
2. السَّكاكيني، خليل. **كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا (سِيرَةٌ ذَاتِيَّةٌ)**، القدس المطبعة التجاريه، 1955م. ط 2 اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت، 1982.
3. السَّكاكيني، خليل. **مَا تِيسَّرَ، مَذَكُورَاتٌ وَيَوْمَيَاتٌ**.
4. شاهين، أحمد عمر. **مُوسَوِّعَةُ كُتُبِ فَلَسْطِينِ فِي الْقَرْنِ الْعَشِيرِيِّ**. د.م: دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية . طبعة أولى: 1992.
5. سليم، تماري. **الْحُبُّ وَالْجُوعُ فِي نِيُوْيُورُكِ**: خليل السَّكاكيني، يوميات، رسائل وتأمُّلات، 2003.
6. حَدَّاد، يوسف أَيُوب. **خَلِيلُ السَّكاكيني**، حياته، مواقفه وآثاره، الْإِتَّحَادُ الْعَالَمِيُّ لِلْكُتُبِ وَالصَّحَّافِيِّينِ الْفَلَسْطِينِيِّينِ، 1991.
7. سليمان، محمد. **صَحْفُ الْبَدَائِيَّاتِ (1904 - 1922م)** تؤسِّس للهَمْضَةِ الأَدْبَيَّةِ الفلسطينية، موقع مجلة "رؤيا" الإلكتروني: [www.idsc.gov.ps].
8. يعقوب، أوس داود. **خَلِيلُ السَّكاكيني**. مؤسَّسة القدس للثقافة والتَّراث، موقع الكتروني.
9. **الْسُّسْخَةُ الْإِلْكْتَرُونِيَّةُ لِمَعْجمِ الْبَابِطِينِ لِلشُّعُرَاءِ الْعَرَبِ الْمُعَاصِرِينِ**.
10. الدَّرَاج، فيصل؟ **السَّكاكيني: الْقَضَيَّةُ الْوُطَّانِيَّةُ وَأَحَلَامُ الْمُتَقَفَّلِ الرَّاقِيِّ**: يوميات خليل السَّكاكيني. رام الله: د.ن، 2003.